



دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الرابع / ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

السياسة والأخلاق عند الإمام الغزالي

أ. محمد خليفة صديق

أكاديمية السودان لعلوم الاتصال

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

مستخلص البحث :

سعى البحث لاستجلاء مفهومي السياسة والأخلاق لغة واصطلاحاً ، ونقب في ثنايا المفهوم الأخلاقي للسياسة عند الغزالي ، مع الأخذ في الاعتبار البيئة والعصر الذي عاش فيه الغزالي ، وهل كانت نظريته مناسبة لذلك العصر؟ ، حيث اتهم الغزالي أنه كان بعيداً عن واقع عصره الذي كان يتحسب لهجمات التتار ويُعاني التردّي في كل النواحي السياسية والعسكرية والعقدية.

كما تطرق البحث لرؤية الإمام الغزالي للمسلم السياسي ومواصفاته ، سيما في تعاملاته السياسية والاقتصادية ، كما ناقش البحث بعض تنظير الغزالي في المسائل المتعلقة بالحكم مثل مبدأ الاختيار في الحكم واشتراط القرشية في خليفة المسلمين ، وغيرها من الرؤى السياسية للغزالي مع ربطها بمجمل رؤية البحث الأخلاقية للسياسة.

Abstract:

This article tries to clarify the views of Imam al-Ghazali concerning the concepts of ethics and politics in light of his time political and social atmosphere; the study shows the significant role played by al-Ghazali in linking between politics and ethics. Many books of al-Ghazali focused on the ethical thought and its role in guiding Muslims in the field of politics. The article explains the vision of Imam al-Ghazali regarding many issues about Islamic politics.

مقدمة :

للأخلاق كما هو معلوم أهمية بالغة لتأثيرها الكبير في حياة الأفراد والجماعات والأمم ، ولهذا فقد عُني بها الإسلام أيما عناية ، وبينت سور القرآن الكريم وآياته أسس الأخلاق ومكارمها^(١) ، وامتدح الله تعالى نبيه ﷺ بحسن الخلق فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، وأمره بمكارم الأخلاق ومحاسنها : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، وكذلك اعتنت السنة النبوية بالأخلاق والمعاملات عناية فائقة ، حتى رأى البعض أن ثلثي أحاديث النبي ﷺ كانا في الأخلاق والمعاملات ، وهذا دليل على عناية السنة بالأخلاق كعناية القرآن الكريم بها .

وهذه العناية بالأخلاق لم تقتصر على جانب من جوانب الحياة دون الآخر ، فهي تشمل كل جوانب الحياة الاجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها ، في حين يلاحظ على الفكر الغربي عدم الاهتمام بربط السياسة بالأخلاق ، وأرسطو في دراسته للنظم السياسية المقارنة ، مقارناً بين أنواع الحكومات الصالحة ، والأخرى الفاسدة اتجه بدراساته اتجاه واقعيًا وفصل بين الأخلاق والسياسة ، إلا أنه ظل وفياً للرؤية الفلسفية ” للدولة “ الصالحة ، التي ينظم دستوراً العلاقات السياسية والاقتصادية... إلخ .

وقد ظل هذا الاتجاه هو السائد على طول فترات الفكر السياسي ، مروراً بالفكر السياسي عند الرومان مع ” شيشرون “ ، والفكر السياسي المسيحي عند القديس ” أوغسطين “ ، والقديس ” توماس الأكويني “ ، إلى الفكر الإيطالي نيقولا ميكافيلي الذي ابتدع مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وحتى فترة ظهور الدعوى الوطنية وظهور معنى جديد لمفهوم ” الدولة “ ، على يد ” جان بودان “ . وإلى التوصيف المعاصر للسياسة بأنها ” لعبة قدرة “ ، بالرغم من أن البعض يرى أن الغرب يعنى كثيراً بقيم الحرية والصدق واحترام القانون والحفاظ على المال العام وأداء الواجب لدى السياسيين ، ولكنه يغض الطرف عن الأخلاق الشخصية ، وقد فطن المسلمون إلى هذه المعادلة المتوازنة لربط السياسة بالأخلاق منذ بواكير الإسلام ، وليس أدل على ذلك من السلوك السياسي في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين .

(١) عبد الله بن سيف الأزدي ، فصول من الأخلاق الإسلامية ، ط ١ ، دار الأندلس ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م ، ص ٧ .

كما حاول علماء الإسلام التقنين لهذا الربط بين السياسة والأخلاق سيما في مؤلفاتهم ذات الطابع السياسي أو التاريخي ، من أبرز هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي^(٢) الذي يلاحظ على مجمل فكره التركيز على الجانب الأخلاقي والتربوي ، وليس أدل على ذلك من كتابه ” إحياء علوم الدين “ ، الذي سعى من خلاله جاهداً لوضع وصفة متكاملة للمسلم الحسن الأخلاق في تعامله مع نفسه ومجتمعه ومع الآخر ، كما حاول أن يرشد المسلم السياسي إلى الطريق القويم الذي يفضي إلى مصلحة المجموع.

في حين درج معظم مفكري السياسة على انتهاج مبادئ تقصي الأخلاق ، كما ذكرنا عن ميكافيلي صاحب مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، ونهايةً بمنظري القرن الحادي والعشرين الذين يبررون للحروب الاستباقية خوفاً من أخطار متوهمة ، ويرتمون في أحضان الخرافات والنبوءات وحجج بسط الديمقراطية وحقوق الإنسان بحثاً عن مسوغات للتنكيل بالآخر وضرب مقدراته.

نرجو من خلال هذا البحث أن نستجلي أولاً مفهومي السياسة والأخلاق لغة واصطلاحاً ، ومن ثم نستكشف ثانياً المفهوم الأخلاقي للسياسة عند الغزالي ، مع الأخذ في الاعتبار البيئة والعصر الذي عاش فيه الغزالي ، وهل كانت نظريته مناسبة لذلك العصر؟ ، حيث اتهم الغزالي أنه كان بعيداً عن واقع عصره الذي كان يتحسب لهجمات التتار ويُعاني التردّي في كل النواحي السياسية والعسكرية والعقدية.

كما يتطرق البحث لرؤية الإمام الغزالي للمسلم السياسي ومواصفاته ، سيما في تعاملاته السياسية والاقتصادية ، كما يناقش البحث بعض تنظير الغزالي في المسائل المتعلقة بالحكم مثل مبدأ الاختيار في الحكم واشتراط القرشية في خليفة المسلمين ، وغيرها من الرؤى السياسية للغزالي مع ربطها بمجمل رؤية البحث الأخلاقية للسياسة.

(٢) هو حجة الإسلام ، كنيته: أبو حامد ، واسمه محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، وسمي الغزالي بتشديد الزاي نسبة لعمل أبيه غزالياً للصوف على طريقة أهل بلده ، لكنه مشهورٌ ب: الغزالي ، ولد بالطابران من قرى طوس بإقليم خراسان عام ٤٥٠ للهجرة الموافق لـ ١٠٤٨م ، وتوفي بها أيضاً عام ٥٠٥ للهجرة ، الموافق لـ ١١١١م.

تمهيد لغوي واصطلاحي :

تعريف السياسة في اللغة :

السياسة لغة هي القيام على الشيء بما يصلحه ، وساس الأمر سياسة قام به ، والسوس يعني : الطبع والخلق والسجية^(٣) ، قال الشاعر :

لقد سوست أمر بنيك * حتى تركتهم أدق من الطحين

ويدخل في ذلك المعنى مجمل التدبير والقيام تجاه كل أمر بما يحتاج إليه ويصلحه ، ومن ذلك ” أن رجلاً أتى النبي ﷺ وقال : إن لي جارية ، وهي خادمنا وسايستنا ، أطوف عليها ، وأنا أخاف أن تحمل... “^(٤) ، يتضح من هذا الحديث أن السائل قد جعل قيام الخادم بتدبير شئون الأسرة سياسة ، ويقال سوس فلان أمر بني فلان ، كلف سياستهم^(٥) ، وذلك لأن السوس الرئاسة فشمل بذلك السياسة تولي الشخص أمر القبيلة وذلك إذا أمرها ونهاها ، وعلى ذلك تعرّف السياسة بأنها القيام بشئون الرعية.^(٦)

والسياسة بمعنى : التدبير؛ هي الاستعمال المقصود هنا ، ومن شواهد ذلك قول النبي ﷺ : ” كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء ، كلما هلك نبيّ ، خلفه نبيّ ، وإنه لا نبيّ بعدي “^(٧) ، قال الإمام النووي أي : ” يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية “.

والسياسة كلمة عربية الأصل ، عميقة الجذور ، وممتدة في التاريخ ذات ماضٍ عريق ، موجودة في كلام العرب قبل الإسلام وفي صدر الإسلام الأول ، ومن ذلك قول القائل :

سادة قادة لكل جميع * ساسة للرجال يوم القتال

وقول هند الصغرى بنت النعمان بن المنذر المعروفة بحرقّة :

فبيننا نسوس الناس والأمر أمرنا * إذا نحن فيهم سوقة نتنصف

(٣) ابن منظور الإفريقي ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، ط ٣ ، ج ٦ ، بدون تاريخ ، ص ١٠٨ .

(٤) أحمد بن حنبل : المسند ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، دار صادر ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

(٥) ابن منظور الإفريقي ، لسان العرب ، مرجع سابق ، ج ٦ ، ص ١٠٨ .

(٦) أحمد عطية ، القاموس السياسي ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ ، ط ٣ ، ص ٦٦١ .

(٧) رواه البخاري ومسلم .

بالرغم مما سبق فإن البعض يرى أن كلمة سياسة اشتقت من اليونانية من كلمة [Polis] ، وتعني الدولة المدنية ، ويقصد بها ” القلعة في قلب المدينة “ ؛ وقد وصف شهاب الدين الخفاجي القول بأنها مُعَرَّبة بقوله : ” وهذا غلط فاحش ؛ فإنَّها لفظة عربيَّة مُتَصَرِّفة... وعليه جميع أهل اللغة “^(٨).

تعريف السياسة في الاصطلاح :

أما اصطلاحاً فيعرفها ابن عقيل الحنبلي كما أورد ذلك الإمام ابن قيم الجوزية بأنها : ” ما كان من الأفعال ، بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد ، وإن لم يشرعه الرسول ﷺ ، ولا نزل به وحى “ ، قال ابن القيم : ” فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط ، وتغليط للصحابة ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والتمثيل ما لا يحجده عالم بالسنن ، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف فإنه كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة الأمة وتحريق علي عليه السلام الزنادقة في الأخاديد... ، ونفي عمر بن الخطاب رضي الله عنه لنصر بن حجاج ، وهذا موضع مزلّة أقدام ، ومضلة أفهام ، وهو مقام ضنك ، ومعتك صعب ، فرط فيه طائفة فعطلوا الحدود وضيعوا الحقوق وجرؤوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له ، وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعاً أنه حق مطابق للواقع ، ظناً منهم منافاتها لقواعد الشرع “^(٩).

كما يرى الإمام ابن القيم أن السياسة نوعان : سياسة ظالمة فالشريعة تحرمها ، وسياسة عادلة ، تخرج الحق من الظالم الفاجر بعين الشريعة علمها من علمها وجهلها من جهلها ، وهذه تردع أهل الفساد ، ويتوصل بها إلى المقاصد الشرعية ، فالشريعة توجب المصير إليها ، والاعتماد عليها في إظهار الحق.^(١٠)

^(٨) سعد بن مطر العتيبي ، مدلول السياسة الشرعية ، بحث موجود على الرابط : <http://saaid.net/Doat/otibi>

^(٩) ابن قيم الجوزية ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، تحقيق محمد جميل غازي ، القاهرة : مطبعة المدني ، بدون تاريخ ، ص ٤ .

^(١٠) المرجع السابق ، ص ٥ .

وطائفة سلكت في هذا الباب مسلك الإفراط فتعدوا حدود الله ، وخرجوا عن قانون الشرع إلى أنواع من الظلم والبدع في السياسة ، وتوهوا أن السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأمة ، وهو جهل وغلط فاحش^(١١) ، فقد قال عز وجل : ﴿ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣].

ويرى آخرون أن السياسة الشرعية من حيث الممارسة العملية هي التوسعة على ولاية الأمور في أن يعملوا ما تقضي به المصلحة مما لا يخالف أصول الشرع ، فهي إعمال للاجتهاد وتمكين للحاكم في أن يعمل بما غلب على ظنه أنه مصلحة ، وذلك أن الأحكام الشرعية ليست كلها منطوقاً للشرع ، بل من مفهومه الموافق المعتمد على قواعده الكلية ومبادئه وغاياته.^(١٢)

فالسياسة هي جزء من محاولة الإنسان المستمرة لفهم نفسه ومحيطه ، وعلاقاته مع الآخرين الذين يتعامل معهم ، وهي تعني من ضمن ما تعني دراسة الدولة ومؤسساتها وأجهزتها والمهام التي تقوم بها هذه المؤسسات والأجهزة والغايات والأهداف التي أنشئت من أجلها ، والسياسة هي البحث عن العدالة وهي تجمع مفهوم القوة والنفوذ والسلطة ، وهي إجمالاً نشاط الدولة.

وفي معناها العام تعد السياسة بمعنى ” policy “ خطة عمل يتم تبنيها من قبل الأفراد ، أو دوائر الأعمال أو الحكومة ، ويمكن النظر إلى السياسة باعتبارها قرارات رسمية أو صادرة عن الجهاز الحكومي ، والسياسة يعكسها موقف الحكومة أي ما تقول الحكومة أنها ستفعله.

والسياسة في أوسع معانيها هي النشاط الذي من خلاله يصنع الناس ويحتفظون بالقواعد العامة التي يعيشون في ظلها ، أو يقومون بتعديلها ، وعلى الرغم من أن السياسة هي أيضاً مجال أكاديمي دراسي له أقسام وكليات وتخصصات متفرعة عنه ، وكثيراً ما يشار إليها

^(١١) إبراهيم بن يحيى بن خليفة ، السياسة الشرعية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، بدون تاريخ ، ص ٤٧.

^(١٢) انظر : mafaheem-dowalia-arabic/iol-islamonline.net

باستخدام كلمة السياسة وقد كتب حرفها الأول كبيراً "Politics" في دلالة واضحة على أن موضوع دراستها أو اهتمامها هو هذا النشاط.

تُعرّف آريندت "Hannah Arendt" القوة السياسية بأنها "التصرف في تناغم"، ويتمثل السبب في هذا أن جوهر السياسة غالباً ما يُقدّم كعملية لحل الصراع، يتم فيها التصالح أو التوفيق بين الآراء المتنافسة، أو المصالح المتنافسة وبعضها البعض، ويمكن تحديد أربعة معانٍ مختلفة تماماً للسياسة^(١٣):

المعنى الأول: أنها مرتبطة تحديداً مع فن الحكومة وأنشطة الدول، وربما يكون هذا هو التعريف التقليدي للسياسة، والذي تطور عن المعنى الأساسي للمصطلح في اليونان القديمة "السياسة من [Polis]"، وفي هذه الرؤية تكون السياسة، بالضرورة نشاطاً مرتبطاً بالدولة، بمعنى أن معظم الناس، ومعظم المؤسسات، ومعظم الأنشطة الاجتماعية يمكن النظر إليها باعتبارها "خارج" السياسة.

المعنى الثاني: تُرى السياسة باعتبارها، نشاطاً عاماً، بمعنى كونه مرتبطاً بسلوك، وإدارة شؤون المجتمع، أكثر من كونه نشاطاً داخل الاهتمامات الخاصة للفرد، ويمكن إرجاع هذه الرؤية إلى اعتقاد أرسطو أنه "فقط، داخل المجتمع السياسي، يمكن أن يعيش الإنسان "الحياة الجيدة"."

المعنى الثالث: يُنظر إلى السياسة على أنها "وسائل خاصة لحل الصراع، من خلال التوفيق والتراضي والتفاوض، أكثر منها من خلال القوة الغاشمة"، ويتحقق هذا التعريف ضمناً عندما يتم تقديم السياسة على أنها "فن الممكن"، كما أنه يقترح أيضاً التمييز بين الحلول "السياسية" لمشكلات تتضمن المناقشات السلمية والتحكيم، وبين الحلول العسكرية.

المعنى الرابع: السياسة ترتبط بالإنتاج، وبالتوزيع، وباستخدام الموارد في مجرى الوجود الاجتماعي، ومن ثم، تدور السياسة في هذا المعنى أي القدرة على تحقيق نتائج مرغوبة، ومن خلال أية وسائل، ويأتي كل من أنصار الحركة النسوية والماركسيين من بين من يتبنون هذه الرؤية.

الأخلاق في اللغة :

الناظر في كتب اللغة يجد أن كلمة أخلاق تطلق ويراد بها : الطبع والسجية ، والمروءة والدين . وحول هذه المعاني يقول الفيروزآبادي : ” الخُلُق بالضم وضمّتين : السجية والطبع والمروءة والدين “^(١٤) ، ويقول ابن منظور : ” الخُلُق والخُلُق السجية .. فهو بضم الخاء وسكونها ، الدين والطبع والسجية “^(١٥).

ثم يفسر ابن منظور ذلك بقوله : ” وحقيقته ، أي الخلق ، أنه لصورة الإنسان الباطنة ، وهي نفسه ، وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولها أوصاف حسنة وقبيحة “^(١٦).

وفي هذا المعنى يقول الراغب الأصفهاني : ” الخُلُق والخُلُق في الأصل شيء واحد كالشرب والشرب والصَّرم والصَّرم لكن خص الخُلُق بالهيئات والأشكال والصور المدركة بالبصر ، وخص الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة . قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] . “

وقرى : ” إن هذا إلا خُلُق الأولين “ ، والخلق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخُلُقهِ قال تعالى : ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة : ٢٠٠] وفلان خَلِيق بكذا : أي كأنه مخلوق فيه ذلك كقولك مجبول على كذا ، أو مدعو إليه من جهة الخُلُق .. “^(١٧).

ومن خلال هذا العرض اللغوي يمكن ملاحظة ثلاثة أمور هي :

الأول : الخُلُق يدل على الصفات الطبيعية في خلقه الإنسان الفطرية على هيئة مستقيمة متناسقة.

الثاني : تدل الأخلاق على الصفات المكتسبة حتى أصبحت كأنها خلقت فيه فهي جزء من طبعه.

الثالث : أن للأخلاق جانبين : جانب نفسي باطني ، وجانب سلوكي ظاهري.^(١٨)

(١٤) القاموس المحيط ، فصل الخاء : باب القاف ، ص ٢٣٦ .

(١٥) لسان العرب ، مادة : خلق ، ج ٢ ، ص ١٢٤٤-١٢٤٥ .

(١٦) نفسه ، المادة نفسها .

(١٧) المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني ، ط ١ ، تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م ، مادة خلق ، ص ١٦٤ .

الأخلاق في الاصطلاح :

عرف العلماء الأخلاق بتعريفات كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ولكن سنذكر أهم تلك التعريفات ومنها :

تعريف ابن مسكويه ، فقد عرف الأخلاق بأنها ” حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية. وهذه الحال تنقسم إلى قسمين : منها ما يكون طبيعياً من أصل المزاج ، كالإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب وبهيج من أقل سبب ، وكالإنسان الذي يجن من أيسر شيء كالذي يفزع من أدنى صوت يطرق سمعه أو يرتاع من خبر يسمعه ، وكالذي يضحك ضحكاً مفرطاً من أي شيء يعجبه ، وكالذي يغمم ويحزن من أيسر شيء يناله. ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدؤه الفكر ، ثم يستمر عليه أولاً فأولاً حتى يصير ملكة وخلقاً“ (١٨)

أما الإمام أبو حامد الغزالي فيعرفها بأنها : ” هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال ببسر وسهولة من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً ، وإن كان الصادر عن هذه الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي تصدر عنها فعلاً قبيحاً“ (١٩)

ويلاحظ من التعريفين السابقين أنها يجنحان إلى نهج فلسفي إلى حد بعيد ، فابن مسكويه كما يقول محمد عبد الله دراز ” كان متأثراً في تفكيره الأخلاقي بالتفكير الأرسطي ، بل كان يتبع أرسطو في هذا التفكير تماماً.. ولا أقول إن أفكار أولئك نسخة من أفكار هؤلاء في جميع نواحيها ذلك أن للإسلام ولجهودهم الفكرية أثر في بعض نواحي تفكيرهم أيضاً“ (٢٠)

(١٨) علم الأخلاق الإسلامية ، مقداد يالجن ، ط ١ ، الرياض ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م ، ص ٣٤ .

(١٩) ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، بيروت : دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، ط ٢ ، ص ٥١ .

(٢٠) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص ٥٦ ، وانظر : أصول الدعوة لعبد الكريم زيدان ، قطر : دار العرفان ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٧٩ .

(٢١) مقداد يالجن ، علم الأخلاق الإسلامية ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

ومع ذلك فإن التعريفين قد كشفنا لنا معاني مهمة من معاني الأخلاق فهي صفات مستقرة في النفس الإنسانية تصدر عنها الأفعال وردودهما سريعة بطريقه تلقائية لا تكلف فيها ، وبهذه الطريقة تظهر الأخلاق .

أما د. عبد الكريم زيدان فيُعرف الأخلاق بقوله: ” هي مجموعة من المعاني والصفات المستقرة في النفس وفي ضوئها وميزانها يحسن الفعل في نظر الإنسان أو يقبح ، ومن ثم يقدم عليه أو يحجم عنه “^(٢٢)

ولا يخفى أن هذا التعريف هو نفسه تعريف الغزالي مع إضافات غير خافية وتكمن إضافته الحسنة بأن المعاني والصفات المستقرة في النفس هي الضابط للإقدام والإحجام عن الفعل بحسب حسنه وقبحه .

وقد عرفها بعض العلماء بأنها ” التحلي بالمليح والتخلي عن القبيح “ ، وهذا التعريف مختصر بالمقارنة مع التعريفات السابقة ، وأقرب إلى الدلالة على المطلوب ، ولكن لو قيد بحسب الشرع لكان أحسن ، لتفادي توهم التحسين والتقبيح العقليين وذلك غير مراد ، فلو قيل ” فعل المليح والتخلي عن القبيح بحسب الشرع “ لكان هذا أولى حتى ننأى بالتعريف عن المناهج والتعريفات الفلسفية .

وقد تنبه لذلك بعض الباحثين مثل الدكتور مقداد يالجن فحدد مفهوم الأخلاق في الإسلام بقوله : ” يمكن تحديد مفهوم الأخلاق في نظر الإسلام بأن الأخلاق عبارة عن علم الخير والشر والحسن والقبح وله قواعده التي حددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه “^(٢٣)

والملاحظ أن الأخلاق في المعنى الاصطلاحي لا تبتعد كثيراً عن المعنى اللغوي ، حيث نجد بينهما تداخلاً واضحاً ” فالعلماء يريدون بها تلك الصفات التي تقوم بالنفس على سبيل الرسوخ ، ويستحق الموصوف بها المدح أو الذم “^(٢٤) ، ولا شك أن المعاني اللغوية تدور حول

^(٢٢) عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ، قطر: دار العرفان ، ١٤٠٨هـ ، ص ٧٩ .

^(٢٣) التربية الأخلاقية الإسلامية ، مقداد يالجن ، دار عالم الكتب: الرياض ، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ، ص ٨١ .

^(٢٤) عمر الأشقر ، نحو ثقافة إسلامية أصيلة ، دار النفائس ، عمان ، ١٤٢١ ، ٢٠٠٠م ، ص ١٥٧ .

هذه المفاهيم الأخلاقية كالدين والمروءة ويستحق من اتصف بها الذم والعكس صحيح ، فإن الأخلاق الكريمة مما تدعو إليها العقول السليمة والفطر المستقيمة ، ولهذا فإن الناس قد تعارفوا على أن الصدق والأمانة والوفاء بالعهود ونحو ذلك هي من الأخلاق الكريمة ، كما تعارفوا عن أن الكذب والغش والخيانة من الأخلاق الذميمة التي ترفضها العقول السليمة والفطر المستقيمة ، ثم جاءت الشريعة داعية إلى المعروف من الأخلاق ناهية عن المنكر منها ، فقد قال ﷺ : ” إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق “.(٢٥)

الأخلاق في الفكر الغربي :

يرى ريمون بولان رئيس جامعة السربون بباريس أن الأخلاق بالمعنى الأوسع ، تبدو في أول الأمر دلالات وقيم لا تستهدف وصف ، وفهم وتعريف وضع الإنسان من حيث علاقاته بالعالم ، فمثل ذلك قد يكون موضوع الميتافيزيقا ، بل تستهدف وصف ، وفهم وتعريف فعل الإنسان الذي به يفرض على نفسه ويضع نفسه موضع حرية بالنسبة للآخرين ، وللعالم وهذه الجملة من الدلالات والقيم ستنهض بوظيفتها نهوضاً أفضل كلما زاد اتساقها وجلاؤها ، فالأخلاق وهي نظرية ممارسة بالدرجة الأولى لا يمكن أن تنفصل عن الواقع المعاش الذي تسعى لفهمه ونظمه.(٢٦)

ويستعمل بولان نعت ” أخلاقي “ للدلالة على تقديرات متسقة مع قيم أخرى ، مع قيم تتميز بنية اتساق قيمى محض بنتيجة انتائها حيال موقف مبدع فريد(٢٧) ، فالأخلاق عند بولان لا تقتصر على الإعراب عن وحدة نية وقصد ، بل تشمل بإرادة اتساق ذلك الوفاء ، وذلك الاتساق حيال قيمها الأساسية ، تشمل جميع الأفعال وجميع الآثار التي تعمرها ، ومن الممكن أن توجد نظريات أخلاقية مختلفة لا تحصى ولكن الأخلاق الحالية من الاتساق ومن الجلاء تخلو في الوقت ذاته من الدلالة بكل معنى الكلمة.

والأخلاق بهذا الاعتبار النظري ، تؤلف وعياً بموقف مبدع فتنظم آثاره بحسب اتساقها الخاص ، وهي تنتمي إلى نظام الإبداع ، وهي تقدم ممارسة أخلاقية في حال المخاض ،

(٢٥) الإمام مالك بن أنس ، الموطأ ، مجلد ٢ ، باب حسن الخلق .

(٢٦) ريمون بولان ، الأخلاق والسياسة ، ترجمة عادل العوا ، دمشق : دار طلاس للدراسات والترجمة ، ١٩٨٨ ، ص ١٨٩ .

(٢٧) ريمون بولان ، إبداع القيم ، ص ٢٣٠ .

بينما تنم هذه الممارسة الأخلاقية عن أخلاق نظرية تقابلها وهي في حال الإنجاز أو على نحو خلقي، إن الأخلاق الراهنة جملة تتسم بقدر كبير أو صغير من الاتساق، وأحياناً تقتصر على تراصف تقاليد وعادات وأعراف وطرز سلوك وأساليب عيش ومشاعر وآراء جاهزة وآثار ماثلة، فهي حصيلة تراكم وترسب آثار جماعية، وتتبع نظرات أخلاقية معاشة بالفعل، فنجد القواعد والمعايير، صريحها أو غير صريحها، تتفوق في مجال الممارسة والعادات الأخلاقية والقيم، بل تبرز الغايات وتفرض بأثقال الماضي كله ضروباً شتى من سلوك الطاعة، أما في الأخلاق على مستوى النظر فإن القيم والغايات تفوق المعايير وتدعو إلى أشكال من السلوك المسئول والمفتوح على المستقبل، وإن الممارسة الأخلاقية تقع مباشرة على صعيد الوجود المعاش، والأخلاق تقع مباشرة على صعيد ممارسة الحرية ممارسة تأملية.^(٢٨)

ثم إن الأخلاق ليست تأملاً بالمعنى الحرفي للكلمة على قدر اتسامها بأنها اختراع أصيل، فهي تتطلع إلى إقامة نمط معين من العلاقات الإنسانية التي يمكن تعريفها وفهمها بدءاً من معانيها وقيمها كما تتطلع إلى الحفاظ على هذا النمط، أما الممارسة الأخلاقية فإنها تصدر في بادئ الأمر من الآخرين، وتكون مأخوذة ومقبولة ومحتملة أو تكون مرفوضة يتجنبها المجتنبون، أما الأخلاق فإنها تصدر من ذاتها على الدوام، سواء أكانت إبداعاً أصيلاً أم إعادة إبداع لوعي الآخرين، وما هو أخلاق بالنسبة إلى شخص قد يكون ممارسة أخلاقية بالنسبة إلى غيره، اللهم إلا إذا قبل هذا الآخر التعاون في إبداعها.^(٢٩)

وفي جميع الأحوال، إن الأخلاق والممارسة الأخلاقية تتناولان علاقات الفرد بالفرد، أو بالآخرين من حيث إن كل واحد منهم فرد معين، إن الأخلاق والممارسة الأخلاقية تتصفان بحدود المعاني والقيم، وهي مجابهة بحريتين، حرية غالبية، وحرية مغلوبة، أو حريتين متسقتين تصفان صراعاً أو تعاوناً، وهذه المجابهة تستند إلى الضرورة، ضرورة تعايش هاتين الحريتين أو تعاونهما، ويكون للمجابهة معنى وقيمة متبادلة، حتى ولو في سبيل مستقبل هو لا يقيني دوماً، وهو ممكن وحسب، ومحتمل إلى حد كبير أو صغير في نظر الخصمين كليهما. وسواء اتصل الأمر بالممارسة الأخلاقية أم بالأخلاق فليس من الممكن ألا يتصف تبادل العلاقات، سواء جرى في جو مساواة أو تفاوت، بصفة تبادل مقبول في آخر

(٢٨) ريمون بولان، الأخلاق والسياسة، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٢٩) المرجع السابق، ص ١٩٠.

المطاف ، ومن شأن كل امرئ أنه يعتبر الآخر في هذا الالتقاء على أنه قادر على الذكاء ، أي على اختيار هادف وراع ، وقادر على حرية اتخاذ قرار وحرية السلوك في المستقبل ، وقادر أخيراً على الالتزام والوفاء بقراراته .

فلا أخلاق بدون تبادل فرد وفرد ، وبدون علاقة ثقة متبادلة ، وعلى الأقل ثقة نسبية ، وبإرادة طيبة ، إن الأخلاق تحدد معاني وقيم العلاقات الفردية المتبادلة وتسعى إلى تنظيمها في سلك معقول ومفهوم بالفعل .

والأخلاق هي ، النية المبدعة والإبداع بالفعل ، والإيمان والأفعال ، ولولا ذلك لا تضحى نظرية ممارسة ، بل تفكيراً مجرداً فارغاً ، فالأخلاق تنمو في جدل اختراعات وتحقيقات توحد في استثنائاتها المستمرة بعضها ببعض توحيداً وثيقاً ، إنها مشروع لا ينفصل عن إنجازها ، وهذا لا يعني أن من الضروري عدم إمكان فصلها عن نجاحها ، فالتنوع لا يمثل في درجة تحقيق نظرية ، بل في درجة إقامة جملة تضم النظرية والممارسة واحتمال انحرافها نحو صنع جمالي ، وانصرافها الممكن أيضاً إلى المجال العاطفي ، وإلى الهوى ، أو وضعها عندئذ موضع التنفيذ .

ولهذه الأسباب مجتمعة نعتبر أن الأخلاق تحقق طبيعتها على نحو أفضل كلما نزعنا إلى تحقيق منظومة علاقات فردية نستطيع صوغها في نظرية معقولة ، وفي وسعنا أن نقيم على صعيد المعقولة إقامة أفضل تبادل الحريات الأصلية بسائق حق الإبداع وبقبول جلي متسق .

نظرة الغزالي للأخلاق :

يقول أبو حامد الغزالي : ” الخلق : عبارة عن هيئة في النفس راسخة ، عنها تصدر الأعمال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية .. وإنما قلنا : إنها هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على النذور لحاجة عارضة ، لا يقال : خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية ، لا يقال : خلقه السخاء والحلم “ .^(٣٠)

يقسم الغزالي الأخلاق إلى قسمين ؛ محمودة ومذمومة : وهي مركوزة في فطرة البشر ، وطريقة التعامل معها تحدد المصير ، يقول الله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا

(٣٠) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، المجلد ٣ ، ص ٥١ .

فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ [الشمس: ٧-١٠] ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ [الليل: ٥-١٠] .

ويرى الغزالي أن الأخلاق الحسنة تقوم على أربعة أركان؛ قوة العقل ” الحكمة “ وقوة الغضب ” الشجاعة “ وقوة الشهوة ” العفة “ وقوة ” العدل “ التي تجعل الحكمة والشجاعة والعفة ملتزمة بحدود الشرع والعقل. ويبين الغزالي أن اعتدال هذه الأركان يثمر حُسن الخلق ، وأن اختلالها بإفراط أو تفريط يُنتج الأخلاق السيئة ، ويشرح أبو حامد فكرته فيقول : ” أمهات الأخلاق وأصولها أربعة : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل. ونعني بالحكمة : حالة للنفس بها يُدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية. ونعني بالعدل : حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة ، وتضبطهما في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها. ونعني بالشجاعة : كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها. ونعني بالعفة : تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع؛ فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها“ .^(٣١)

إذاً بحسب الغزالي فمن اعتدال قوة العقل : يحصل حسنُ التدبير ، وجودةُ الذهن ، وثقابةُ الرأي ، وإصابةُ الظن ، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس ، ومن إفراطها.. يحدث المكر والخداع والدهاء ، ومن تفريطها : يصدر البكّة والغمارة والحمق والجنون ، وأعني بالغمارة : قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل ، فقد يكون الإنسان غمراً في شيء دون شيء ، والفرق بين الحمق والجنون أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد ، فلا تكون له روية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض. وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصل اختياره وإيثاره فاسداً.^(٣٢)

أما خلق الشجاعة : فيصدر منه الكرم ، والنجدة ، والشهامة ، وكسر النفس ، والاحتمال ، والحلم ، والثبات ، وكظم الغيظ ، والوقار ، والتودد ، وأمثالها ، وهي أخلاق محمودة. وأما إفراطها ، وهو التهور : فيصدر منه الصلف ، والبذخ ، والاستشاشة ، والتكبر ،

(٣١) الغزالي ، ميزان العمل ، ص ٢٦٤ .

(٣٢) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، المجلد ٣ ، ص ٥٢ .

والعُجب. وأما تفريطها : فيصدر منه المهانة ، والذلة ، والجزع ، والحساسة ، وصغر النفس ، والانقباض عن تناول الحق الواجب.

أما خلق العفة : فيصدر عنه السخاء ، والحياء ، والصبر ، والمسامحة ، والقناعة ، والورع ، واللطافة ، والمساعدة ، والظرف ، وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط : فيحصل منه الحرص ، والشره ، والوقاحة ، والخبث ، والتبذير ، والتقصير ، والرياء ، والهتكة ، والمجانة ، والعبث ، والملق ، والحسد ، والشهاتة ، والتذلل للأغنياء ، واستحقار الفقراء ، وغير ذلك.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع ، وهي : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ، والباقي فروعها ، ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله ﷺ ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه ، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربته من رسول الله ﷺ ، فإن رسول الله ﷺ لم يبعث إلا لتمام مكارم الأخلاق ، كما قال.. وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥].

” فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وهو ثمرة العقل ومنتهى الحكمة ، والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي ترجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحدِّ الاعتدال “.(٣٣)

الأخلاق إما وهبية وإما كسبية : ونعني بالوهبية ما جُبل عليه كل فرد من أخلاق ظاهرة فيه . وبالكسبية ما يحصله المرء نتيجة مجاهدة النفس وحملها على مكارم الأخلاق. يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. ﴾ [العنكبوت : ٦٩]. ويقول رسول الله ﷺ : ” إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يُعطه ، ومن يتقِ الشر يُوقه “.(٣٤)

(٣٣) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، مجلد ٣ ، ص ٥٣.

(٣٤) ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة ، مجلد ١ ، ص ٦٠٥.

السياسة والأخلاق .. رؤية غربية :

في فكر فلاسفة اليونان خاصة أفلاطون السياسة لا تنفصل عن الأخلاق ، فأفلاطون كان دائماً مشغولاً بتعريف الفضيلة والخير وبتعليم الناس كيف يجنون الحياة السعيدة^(٣٥) ، كما حدد أفلاطون صفات الفيلسوف الذي يكون رئيس الدولة كأن يحب الخير ويكون قد طهر نفسه من أرجاس البدن... يعرف الحق ويسعى لتحقيقه.^(٣٦)

يرى بعض المفكرين الغربيين المعاصرين أن السياسة شأنها شأن الأخلاق ، تستهدف تكوين نمط معين من العلاقات الإنسانية العارفة بحدود المعاني والقيم وإقامته والحفاظ عليه ثم الذود عنه وإيضاحه ، وهي تتناول عين الإرادة المتطلعة إلى جعل كثرة من الناس يعيشون في نظام سلمي يمكن وصفه بحدود القيم ، أي يمكن فهمه وتسويغه وقبوله في نهاية المطاف ، ولذا فإن الأخلاق والسياسة قد تتداخلان تداخلاً جلياً ومتسقاً معاً انطلاقاً من تجمع وحيد يضم معاني وقيماً ، بل إن ذلك يبدو بديهياً ، وعندما يحدث انقسام أو تباعد في ممارسة إنسان أو ممارسة جماعة بين ما هو أخلاقي وما هو سياسي ، نشعر في الوهلة الأولى بدهشة وصدمة ، أو بالأحرى هي أقرب لصدمة تناقض.^(٣٧)

بيد أن من الواجب الاعتراف بأن طبيعة العلاقات التي تعالجها السياسة تختلف اختلافاً كبيراً عن طبيعة العلاقات التي تتناولها الأخلاق ، أضف إلى ذلك أن الأشخاص المعنيين ليسو هم أنفسهم في الحالتين ، بل إنهم قد لا يكونون من نوع واحد ، فعلى صعيد الأخلاق تقوم العلاقة بين من نريد ومن يريده ، وهي على الدوام علاقة أفراد مختارين ، أو أفراد قاموا باختيارهم ففي وسعي تماماً ألا أعقد أية علاقة أخلاقية مع عابر السبيل هذا ، أو مع هذا المسافر في الحافلة المشتركة ، أو مع جار مسكني في الطابق الواحد.

إن الأوضاع الأخلاقية أوضاع مختارة نستطيع رفضها دوماً ، بل وحتى عندما تضغط الحوادث ، فإذا كانت احتياطات التهذيب غير كافية أمام إلحاف الآخرين أو الظروف ، فإن علاقات الحق المجردة تكفي لتنظيم جملة العلاقات المحتملة بين الأفراد ، وعندئذ ترجع

(٣٥) ناجي التكريتي ، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، بيروت: دار الأندلس ، ١٩٨٢ ، ص ٧٠.

(٣٦) انظر : Plato, The Republic, P: ٤٨٥، ٤٨٦.

(٣٧) ريمون بولان ، الأخلاق والسياسة ، مرجع سابق ، ص: ١٩٥.

علاقات الأفراد إلى مستوى تلعب فيه حرية المعنيتين وقبولهم دوراً أدنى ، لذا يقتضي هذا الحال تعريف ” الاجتماعي “ بصرف النظر عن ” السياسي “ ، حتى ولو لم يوجد بدونه ، فمن خواص الاجتماعي اللاسياسي أن العلاقات التي يتألف منها هي عادات أخلاقية معاشة ، علاقات أخلاقية تستند إلى عفوية متبادلة بين الإرادة الطيبة والإرادة الخبيثة ، بين التعاطف والخصام ، بين الصداقة كما كان ” أرسطو “ يقول : والحق حضور الآخر ، صداقة ، علاقات عائلية ، تعاون ، ولكن جميع العلاقات في إطار جماعة سياسية ، وجميع الأنشطة الاجتماعية يمكن أن تتسم بنية سياسية أو بعامل سياسي وقد تتسم بعض هذه العلاقات من جراء طبيعتها الخاصة ، وبعضها الآخر قد يتحقق لأغراض سياسية ، أو تبطن بغايات سياسية ، ومن الممكن دوماً تسييسها تسييساً متكلفاً إلى حد كبير أو صغير.^(٣٧)

وما أن يضطر أفراد إلى التعايش بعدد كبير بما يكفي ليحول دون قيام علاقاتهم على أساس فردي محض حتى تظهر شروط الحياة السياسية ، وعندئذ تنتقل من الخاص الفردي إلى النظام العام ، وإلى المجال السياسي ، فنجد أن جوهر السياسي ماثلاً في النظام مفروض من الخارج على جملة أفراد ينتمون إليه ، وهذا النظام مفروض عليهم بوصفه خيراً مشتركاً للجماعة ، بوصفه شرط وجودها وبقائها السليمين ، وإن احترام هذا النظام مفروض على عدد كبير من الناس ، خلال حقبة طويلة ، الأمر الذي يفترض إمكان ، بل وحتى احتمال ظهور الخلافات بين أعضاء الجماعة ، ومن ثم احتمال وجود ” أشرار “ يعيشون في المجتمع .

ربط السياسة بالأخلاق عند الغزالي :

إن فهم السياسة في الإسلام لا يمكن أن يتم إلا بفهم شمولي للإسلام ، فالأحكام السياسية الإسلامية وإن كانت قائمة على القواعد العامة دون تفصيلاتها إلا أنها مرتبطة بالجوانب الأخرى ارتباطاً مباشراً إذ إن ذات النصوص والأحكام والقواعد العامة التي تحكم جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق ، هي ذاتها التي تحكم المعاملات والسياسة لأن مرجعيتها واحدة وهي الكتاب والسنة النبوية ، وإذا كانت جوانب العقيدة والعبادة والأخلاق قد شملتها الأحكام التفصيلية أكثر من المعاملات والسياسة فلأن الأولى أكثر استقراراً وثباتاً من الأخرى خاصة السياسة التي من طبيعتها التغير والتبدل داخل الإطار الأوسع وهو القواعد العامة.

(٣٧) ريمون بولان ، مرجع سابق ، ص ١٩٧-١٩٦ .

وإذا تبين موقع السياسة في النظام الإسلامي الشامل نجد أن من الصعوبة مقارنة بأنظمة أخرى يمكن اجتزاؤها وفصلها عن سياق المجتمع ، إذ لا يمنع النظام العلماني - مثلاً - أن تكون السياسة ملتزمة بالديمقراطية في مجتمع لا ديني أو مجتمع لا تأثير للدين فيه ، بل يمكن الفصل بين السياسة والحياة بمجملها بحيث تحكم السياسة ضوابط ومبادئ ليست هي الضوابط والمبادئ ذاتها التي تضبط المجتمع ، فعلاقة السياسة - مثلاً - بالأخلاق في المجتمعات غير الإسلامية هي علاقة واهية إذ تغلب المصلحة على السياسة أكثر من غلبة الأخلاق بينما يكون للأخلاق شأن أوسع في معاملات الناس وعلاقتهم ببعضهم البعض ، أما في الإسلام فإن السياسة والأخلاق ترتبطان ارتباطاً عضوياً ، ومن هنا فإن هذا التفكيك غير ممكن في النظام السياسي الإسلامي لأنه جزء من كل يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع بقية مكونات الإسلام.^(٣٨)

وحين يدعو الإمام الغزالي إلى طاعة الله ورسوله والسلطان والسيد والأب والزوج إذا أمروا وأوجبوا لم يجب شيء بإيجابهم بل بإيجاب الله تعالى طاعتهم ، ولولا ذلك لكان لكل مخلوق أوجب على غيره شيئاً كان للموجب عليه أن يغلب عليه الإيجاب ، إذ ليس أحدهما أولى من الآخر ، فإذا الواجب طاعة الله تعالى وطاعة من أوجب الله طاعته ، وفي هذا تأكيد على علو كعب السياسة في الرؤية الإسلامية.

قدم الغزالي للحاكم مجموعة من القواعد تعتبر أسس الدولة في الإسلام وهي تحمل طابعاً أخلاقياً واضحاً ، وقد فسر هذه الأصول في شكل نصائح تتمثل فيما يلي:^(٣٩)

- (١) أن يعرف الحاكم قدر الولاية وخطورها ، وأن يحكم نفسه في كل الأمور ولا يرتضي لنفسه ما لا يرتضيه لغيره.
- (٢) تقريب العلماء والحرص على العمل بنصائحهم ، والحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا طمعاً في المكاسب الشخصية.
- (٣) تهذيب عُمله ، فهو مسئول عن ظلمهم ولهذا يجب عليه مراقبتهم.

^(٣٨) سعيد عبد الله حارب ، السياسة والدين بين المبادئ والتاريخ ، بحث قدم في ندوة الفقه السياسي للأقليات المسلمة بأوروبا ، أسطنبول ٤-٦ يوليو ٢٠٠٦م.

^(٣٩) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، القاهرة: دار قباء للنشر ، ٢٠٠٢م ، ص ١١٢.

- (٤) الاهتمام بأمر المسلمين ولا يستحقر وقوفهم وانتظارهم بالباب وفي هذا يقول: "ولتجعل للرعية والسواد في كل يوم مدة لمطالعة أحوالهم فقد يتشعب الظلم مع الغفلة لاسيما مع الحجاب والعمال".^(١٠) ويوصي السلطان بعدم لعب الشطرنج وشرب الخمر والانشغال بالصيد ، لأن ذلك يمنعه من الاهتمام بأمر الرعية ولهذا يجب عليه تقسيم وقته إلى ثلاثة أقسام : قسم للطاعة والعبادة ، وقسم للنظر في أمور الرعية ، وقسم لشئونه الخاصة.^(١١)
- (٥) الترفع عن التلذذ بالشهوات والمأكولات والملبوسات ، كما يجب أن يجاهد نفسه بمخالفتها لأنها ذميمة الخلق وغير مستقيمة ، وهي باب للغواية.
- (٦) أن يكون رقيقاً في أغلب الأمور ، حريصاً على أن يعطي كل ذي حق حقه.
- (٧) أن يستعين على عمله بالعبادة وأن يكون متواضعاً معروفاً بالعدل وعدم التكبر والغضب على الرعية ناصحاً للمسلمين ، وذلك أن العدل يعمل على بسط باع السلطة والهيبة ، كما يجب عليه ألا يتهاون في تطبيق شرع الله وذلك حتى يطمئن قلب الرعية فالسلطان ظل الله في أرضه وملجأ للمظلومين.^(١٢)
- (٨) أن يكون حريصاً على موافقة الشرع في جميع أموره ليسهل عليه قيادة الرعية وألا يطلب رضا أحد بمخالفة الشرع.
- (٩) أن يكون حريصاً على مرضاة الخلق ومحبتهم بطريق يوافق الشرع ولا يخالفه.
- (١٠) أن تكون العادة الغالبة على ولي الأمر العفو والحلم وحسن الخلق وكظم الغيظ مع القدرة.^(١٣)
- هكذا يوضح الغزالي في نصائحه ما يمكن أن نسميه الأسس النفسية والاجتماعية التي تحكم العلاقة بين الحاكم والأمة ، وفي نفس الوقت تعكس مدى ضخامة الأعباء الجسام التي

(١٠) الغزالي ، سر العالمين ، ص ٩-١٠.

(١١) الغزالي ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، بيروت: دار المركز الإسلامي للبحوث ، ١٩٨٧ ، ص ٦٧-٦٨.

(١٢) الغزالي ، سر العالمين ، ص ٩.

(١٣) الغزالي ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، مرجع سابق ، ص ١٣-٢٩.

تشمل أمور السياسة والاجتماع والاقتصاد والأمن التي ألقى بها الإسلام على عاتق الحاكم وموظفيه مما يجعل منه حاكماً سياسياً في المقام الأول.^(٤٤)

وقد ركز الغزالي على عامل نفسي مهم في العلاقة بين الحاكم والأمة وفي ترسيخ قيم معنوية مهمة في الأصول السياسية للإسلام ، وذلك عند حديثه عن الإيمان باعتباره أساس الدولة الإسلامية ، ويجب أن يكون شعاراً للحاكم المسلم ، حيث أوضح أن الإيمان كالشجرة لها أصول وفروع ، فالأصول عشرة تدور حول العقيدة ، أما الفروع وهي عشرة أيضاً فتتمثل في العمل بالأركان وتركز بوضوح على العدل وتلزم الحاكم بأن يتماشى في سلوكه مع العمل بالفرائض.^(٤٥)

أهمية السياسة وأنواعها لدى الغزالي :

إن كلمة السياسة عند الغزالي تعني صلاح الناس عن طريق إرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة^(٤٦) ، وهذا يوضح المدلول الخلقي لمصطلح السياسة في الفقه الإسلامي ، وهذا ما سنشير إليه فيما بعد.

كما يستفاد أيضاً من آراء الغزالي عن السياسة أنها تعني إحكام النظام ونشر الأمن عن طريق استخدام القوة مع الخارجين على النظم ، والقوة في التعامل مع المفسدين ، خصوصاً فيما يتصل بتدبير أمور الدولة مع اتباع الحزم بما يظهر هيئة الدولة ، أي إن كلمة السياسة تعني عنده استعمال القوة والعنف المشروع في إدارة وتنظيم أمور الدولة وإشاعة الأمن والأمان بين المواطنين بشقيه الأمن النفسي والاجتماعي.

وقد بلغ اهتمام الغزالي بالسياسة حداً كبيراً لدرجة أنه اعتبرها من الأصول التي لا بد منها لقيام الحياة ، كما أنه جعلها في الأهمية كالمطعم والملبس الذين لا غنى عنهما للإنسان وذلك أن ” مقاصد الخلق مجموعة في أمور الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا فإن

(٤٤) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، مرجع سابق ، ص ١١٤ .

(٤٥) التبر المسبوك ص ٢٩-٧ .

(٤٦) الغزالي ، فاتحة العلوم ، ص: ٦ ، وأحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، مرجع سابق ، ص: ١١٧ .

الدنيا مزرعة للأخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله تعالى لمن اتخذها آلة وممرّاً لمن يتخذها وطناً ومستقراً وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين^(٤٧).

وهذه الأعمال تنحصر لدى الغزالي في أقسام أربعة أصول لا قوام للعالم بدونها وهي :

(١) الزراعة.

(٢) الحياكة.

(٣) البناء.

(٤) السياسة.

والسياسة هي أشرف هذه الأصول للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها كما أنها أساس الإصلاح ، وأنها تستدعي من الأعمال ما لا يستدعيه غيرها ، وأن من يتكفل بها يستخدم سائر الصنائع ويحتكم عليهم. والسياسة عند الغزالي على أربع مراتب^(٤٨) :

الأولى : سياسة الأنبياء وهي العليا وحكمهم على الخاصة والعامة في ظاهرهم وباطنهم.

الثانية : سياسة الحكام وحكمهم على ظاهرة العامة.

الثالثة : سياسة العالم بالله وبدينه حيث إن العلماء ورثة الأنبياء وحكمهم على باطن الخاصة.

الرابعة : سياسة الواعظ وحكمهم على بواطن العامة.

ومفهوم السياسة من خلال التقسيم السابق تتضح مدلولاته التربوية والخلقية بمعنى التهذيب النفسي والخلقي ، وتتصل السياسة عند الغزالي بأوجه النشاط الإنساني المختلفة ، فهي تتصل بالقانون مثلاً من حيث بيان الحدود وجزاء المحسن والمسيء ، وذلك لأن التنظيم السياسي للدولة يقوم في إطاره العام على أساس محدد من العلاقة بين المواطنين وبين القانون حيث يمثل القانون طبيعة الدولة ، فهو مجموعة من الأوامر والنواهي التي تطبقها على رعاياها ، وهما متداخلان حتى لا يمكن تصور أحدهما دون الآخر ، لأن القانون لا يكون بعيداً عن الدولة وأنه لا يمكن تصور دولة من غير قانون^(٤٩).

(٤٧) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، المجلد ١ ، ص: ٢١.

(٤٨) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، مرجع سابق ، ص ١١٨ - ١١٩.

(٤٩) حسين فوزي النجار: الإسلام والسياسة ، ص ٢٤٦.

والقانون عند الغزالي هو الشريعة الإسلامية التي ينبغي العمل بها والسير على هداها ليتحقق للإنسان عن طريقها السعادة في الدنيا والآخرة... وتنظيم حياة الجماعة في ضوء القانون الذي يحكم تلك الجماعة، وعلى هذا فالشريعة هي القانون الذي في ضوئه يتم تنظيم جماعات المسلمين وهذه أمور يباشرها الفقيه لأنه العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، والفقيه هو معلم السلطان ومرشده إلى سياسة الخلق.^(٥٠)

فالغزالي يعود ويؤكد على مكانة العلماء، ويمثلهم الفقيه، في توجيه شئون الدولة، وتوجيه النصح إلى الحاكم، من أجل المصلحة العليا للدولة والأمة، باعتبارهم عقولها النيرة والمفكرة وضميرها الموجه، وهذا بعد حضاري يحسب للفقه السياسي الإسلامي الذي يؤكد على مكانة العلم والعلماء في توجيه شئون الحكم والدولة، وهو الدور الذي ينبغي أن يلعبه العلماء في عالم اليوم، وهو موسمي بل غائب في كثير من الدول.

الأخلاق وصلتها بالسياسة عند الغزالي :

يلاحظ تركيز الغزالي على الأخلاق في جميع أعماله واعتنى بها عناية فائقة، والأخلاق عند الغزالي باب واسع وعريض ظهرت معالمه جلياً في "إحياء علوم الدين" الذي قصد فيه وضع برنامج عمل للمسلم في حياته، حيث تجد أن السمة العامة التي يؤدي إليها هذا البرنامج هي حسن الخلق.

الناظر لمقولات الغزالي في أسس الدولة يجد أنه يقدم مجموعة من الأسس كفيلة بأن تجعل السمة العامة لهذه الدولة أنها دولة أخلاقية من الطراز الرفيع، فهو يركز على مجموعة من الأسس وضعها في شكل نصائح للحاكم تساعد على تحقيق الهدف المنوط به كحاكم عادل، وهي أمور في مجملها تعمل على تهذيب خلق الحاكم وتعينه على أداء مهمته كخليفة على الناس، فالحكم عند الغزالي وسيلة لا غاية، والقصد منه رفاهية الشعوب في ظل العدالة ولا يتم ذلك إلا عن طريق الخلق السياسي الذي هو بمثابة العصب للجسد فهو الذي يرشد السياسي إلى الطريق السوي الذي يسلكه من أجل تحقيق مصلحة المجموع.^(٥١)

(٥٠) أحمد عرفات القاضي، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي، مرجع سابق، ص ١١٩.

(٥١) العمري، السياسة والحكم في ضوء الدساتير المقارنة، القاهرة: مطبعة الأنجلو المصرية، ١٩٥٢م، ص ١-٣.

وعندما يتحدث الغزالي عن العالم المسلم أو الفقيه العالم بقانون السياسة نجده يشترط فيه أن يكون قدوة للناس فلا يكون شرها في مطعمه وملبسه ، وينبغي أن يكون حذراً من مخالطة السلاطين ، فهو يحذر العلماء من السلاطين ويحذر السلاطين من علماء السوء وهي أمور أخلاقية بالدرجة الأولى. وعرج الغزالي في حديثه عن الاقتصاد ، على ما ينبغي على التاجر مثلاً أن يقصد إلى إقامة فرض من فروض الكفايات بتعاونه مع المجتمع الإسلامي ، حتى أنه يرى أن الواجب على التاجر المسلم أن ينظر إلى ربح الآخرة قبل ربح الدنيا ، لدرجة أن أقل ما يطلبه من التاجر هو العدل فضلاً عن الإحسان ومراقبة وظائف الدين وهي في مجملها أعمال أخلاقية.^(٥٢)

ولا يخلو اشتراط الغزالي للقهر أو القوة في المجتمع من الهدف الأخلاقي ، وذلك لأن القوة لدى مفكري الإسلام عامة لا تعني القوة المادية الصرفة التي تستهدف استضعاف الشعوب وقهرها ، ولكن المفهوم الإسلامي للقوة يتضمن العنصر الأخلاقي أو الإنساني^(٥٣) ، وهذا عين ما نجده لدى الغزالي في حديثه عن الشوكة أو القوة أو القهر على اعتبار أنها أمور موجودة لحفظ النظام وحراسة أمن الفرد والجماعة وحياتهم ، كما أن معنى السياسة عند الغزالي يرتبط بالأخلاق ارتباط السبب بالمسبب حيث يعرف السياسة بأنها استصلاح الخلق وذلك عن طريق إرشادهم إلى الطريق المستقيم المنجي في الدنيا والآخرة.^(٥٤)

وفي هذا التعريف نجد الغزالي قد أعطى السياسة مفهوماً أخلاقياً ، وذلك لأنه يقصد بالسياسة التعليم والتهديب والإرشاد وهو معنى واسع وعريض يوضح اشتراك رجل السياسة في مهمة الإرشاد والتعاون الاجتماعي الذي لا بد منها لقيام المجتمع واستقراره.^(٥٥) وتتضح قيمة ارتباط السياسة بالأخلاق عند الغزالي عند النظر إليها في إطار البيئة والعصر الذي نشأ فيها ، وذلك لأن آراء الغزالي كانت بمثابة البديل المطروح لآراء الباطنية التي كانت تخلو من كل معنى خلقي وتتناقض مع كل عمل أخلاقي ، ويبدو أن هذه الصفات

(٥٢) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، مرجع سابق ، ص: ١٢٦ .

(٥٣) فتحي الدريني ، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم ، بيروت: مؤسسة الرسالة ، بدون تاريخ ، ص ١٦٨ .

(٥٤) الغزالي ، فاتحة العلوم ، ص ٦ .

(٥٥) محمد عبد المعز نصر ، فلسفة السياسة عند الغزالي ، دار النهضة العربية ، ص ٤٥٥ .

اللا أخلاقية قد أصبحت سمة مميزة للقوة الغاشمة الغربية ، التي تعكس روح حضارة تجافي الأخلاق فيها السياسة ، وتحل محلها مبدأ المنفعة الشخصية والمصلحة الخاصة.

يرى ” فون همر “ أن الأعمال الوحشية التي قام بها كل من الباطنية والحركة الصهيونية كما هو معروف في التاريخ الحديث والمعاصر ، كانت ترمي إلى تجريد الأمم من أديانها وأمرائها ، وأن جنونهم المرعب قد ظهر واضحاً في آثار الثورة الفرنسية^(٥٦) ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل وصل بهم لدرجة أنهم أرادوا أن يقضوا على الأخلاق الدينية نهائياً ، ويتضح هذا في مناداة عالم الاجتماع اليهودي ” أميل دوركايم “ ، بضرورة التخلي عن الأخلاق الدينية والاستعاضة عنها بأخلاق طبيعية يكون مصدرها العقل لا الدين.^(٥٧)

يتضح مما سبق أن ربط الغزالي بين الأخلاق والسياسة كان موقفاً طبيعياً لم يتأثر فيه بأحد ، وإنما كان تعبيراً عن رأيه كفقيه وعالم مسلم يرى أن السعادة الأخروية هي غاية الأخلاق^(٥٨) ، كما كان موقفه تعبيراً عن طبيعة الشريعة الإسلامية التي تميزت بالسباحة وتجلي فيها العمل الخلقي كأظهر ما يكون ، وبذلك يتضح عدم صحة ما ذهب إليه البعض من أن الغزالي في ربطه بين الأخلاق والسياسة التي أعلى من شأنها حيث جعلها وظيفة تربوية تالية لعمل النبوة كان متأثراً بالفارابي الذي ربط من قبل بين السياسة والأخلاق وجعل رئيس الدولة مربّي الأمة والأمم^(٥٩) ، وذلك أن الفارابي كان ينقل معظم آرائه السياسية وغيرها عن الفكر والفلسفة اليونانية ، ولم يكن معبراً كالغزالي عن الفكر الإسلامي الأصيل.

كما أن الغزالي في آرائه السياسية وغيرها كان يصدر عن واقع معيش بالنسبة له ، وتأثر به بخلاف الفارابي الذي كان ينقل عن الآخرين فكراً نظرياً صعب التطبيق ، كما أنه كان يتحدث بفكر غريب عن البيئة الإسلامية نشأة وموضوعاً ، حيث كان ينسج على منوال أفلاطون في جمهوريته حتى وإن حاول أن يلائم بين الفكر السياسي الأفلاطوني والفكر السياسي في الإسلام إلا أنه ظل متأثراً بالصبغة الأفلاطونية أكثر.

(٥٦) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، مرجع سابق ، ص: ١٢٧.

(٥٧) أميل دوركايم ، التربية الأخلاقية ، ترجمة السيد محمد بدوي ، القاهرة ، بدون تاريخ ولا دار نشر ، الطبعة ١ ، ص ٧ - ٢٥.

(٥٨) انظر زكي مبارك: الأخلاق عند الغزالي ، ص ١٦١ ، الطبعة الثانية ، دار الشعب ، ١٩٧٠.

(٥٩) مصطفى شاهين ، فلسفة الفارابي السياسية ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ، جامعة القاهرة.

والدليل على أهمية وحيوية وواقعية آراء الغزالي السياسية تنازله عن بعض الشروط التي ينبغي توافرها في الإمامة ، نتيجة لظروف العصر ، مثل التنازل عن رتبة الاجتهاد في العلوم والكفاية بعلماء العصر ، إلا أنه كان شديد التمسك بشرط النسب ، حيث إن الخليفة العباسي قرشي النسب ، ورغم صعوبة تحقيق شرط القرشية في خليفة المسلمين في عصرنا الحالي ، إلا أن هذا الشرط كما يرى الباحث قد يكون في مقبل الأيام حافزاً على توحيد المسلمين على خليفة واحد من قريش يتفق عليه الناس .

وفي ضوء مناقشة الغزالي لتلك الآراء ونظرته الجديدة إلى الشروط التي وضعها الفقهاء للإمام ، يرى أحمد عرفات القاضي أن الغزالي لو كان في عصرنا هذا مثلاً لتنازل عن شرط القرشية الذي كان شديد التمسك به نتيجة لظروف البيئة من حوله ، وذلك لأن الغزالي كان مفكراً مرناً يعالج القضايا بموضوعية واقتدار في ضوء ما يحتمه الواقع.^(١٠)

والحقيقة أن الآراء العملية التي ضمنها الغزالي في كتبه ” فضائح الباطنية “ و ” فاتحة العلوم “ و ” الاقتصاد في الاعتقاد “ وغيرها ، وآراءه النظرية التي بوبها في كتابه ” التبر المسبوك “ والذي توجه به إلى السلطان محمد بن مالك شاه السلجوقي ، يعتبر تطبيقاً عملياً لآرائه السابقة ، كل هذه الآراء تتبلور لتوضح بجلاء موقف الغزالي في السياسة وملامح فلسفته السياسية .

وبعد البحث والتقصي عن ملامح تلك النظرية في السياسة للإمام الغزالي والتي تشكل رؤية متكاملة في هذا المجال ، اتفق عدد من كبار الباحثين أن آراء الغزالي السياسية رغم قتلها، إلا أنها تكون نظرية متكاملة في الفكر السياسي ، بل رأى د. محمد عبد المعز نصر^(١١) أن الغزالي قد وصل في وقت مبكر إلى آراء قيمة وعملية وواقعية عن فن الحكم يستحق عليها صاحبها لقب الفيلسوف السياسي ، وأنه حافظ على هذه الآراء في كتاباته المتتالية مما يميز النظام الفكري المتسق له في مجال السياسة .

خلاصة :

يتضح من مناقشة مجمل الفكرة السياسية للغزالي أنه سعى جاهداً لوضع وصفة متكاملة للمسلم الحسن الأخلاق في تعامله مع نفسه ومجتمعه ومع الآخر ، كما حاول أن

(١٠) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، مرجع سابق ، ص : ١٣٣ .

(١١) محمد عبد المعز نصر ، فلسفة السياسة عند الغزالي ، مرجع سابق ، ص ٤٥٢ .

يرشد المسلم السياسي إلى الطريق القويم الذي يفضي إلى مصلحة المجموع ، وهذا الطرح وحده كفيل بتوضيح أهمية الأخلاق بالنسبة للسياسة وارتباط كل واحد منهما بالآخر في فكر الغزالي الذي كان يعبر عن رأي الإسلام الذي أعلى كثيراً من شأن هذه القيم ، كما شكلت آراء الغزالي وقتها البديل المطروح لموقف مدارس منحرفة من هذه القيم ، مما جعل لكلام الغزالي عن الأخلاق وصلتها بالسياسة أهمية حيث إن حديثه كان تعبيراً مباشراً عن أصالة وواقع.

كما خلص البحث إلى أن الغزالي كان مفكراً مرناً يعالج القضايا بموضوعية واقتدار في ضوء ما يحتمه الواقع ، واستطاع أن ينتصر لمدرسة ربط الأخلاق بالسياسة ، وهو موقف يعبر تعبيراً حقيقياً عن جوهر الإسلام الذي يعتني كثيراً بهذه القيم ، كما كان موقفه في الوقت نفسه رداً على الموقف المنحرف لبعض الفرق من تلك القيم ، التي لم تقف فقط ضد هذه القيم ، بل تجاوزت ذلك للعمل على استئصالها من حياة الناس.

وإن كانت ثمة توصيات في خاتمة البحث فإننا ندعو لمزيد من الاهتمام بالتراث السياسي الإسلامي والتنقيب عنه وتحقيقه لتمكين الأجيال المسلمة الصاعدة من الاطلاع على تراث أجدادها الذين شادوا العالم وسادوه بالعلم والدين والأخلاق قبل القوة والسيوف.

كما تقتضي الضرورة في هذا العصر الاهتمام بإحياء أخلاق القوة والعزة في الأمة ، أو ما يعرف بالأخلاق الإنسانية الأساسية التي وردت في عدة أحاديث للنبي ﷺ منها الحديث الذي رواه الإمام مسلم في " كتاب الفتن وأشراط الساعة " من صحيحه : " قَالَ الْمُسْتَوْرِدُ الْقُرَشِيُّ ﷺ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ " ، فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : أَبْصِرْ مَا تَقُولُ !! ، قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ ، إِنَّ فِيهِمْ لِحِصَالاً أَرْبَعًا : إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ قَرَّةٍ ، وَخَيْرُهُمْ لِمُسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ : وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ " .

وهذه الصفات التي ذكرها عمرو بن العاص ﷺ من خبرته بالشعوب والقبائل ، فتذكر من صفات الروم ما أزال استغرابه ، وذكر من شمائلهم ما يؤهلهم للكثرة والظهور وهي صفات أحوج الأمم لها هي الأمة الإسلامية ، إنهم :

- أحلم الناس عند فتنة فلا تستفزهم التحديات فتدفعهم إلى تصرفات طائشة متسعة مهلكة ، بل يتهاشكون أمام عوامل الإثارة والتوريط ، ويتفكرون في عواقب الأمور ، ونحن المسلمين في أمس الحاجة لتعميم خلق الحلم والأناة في حياتنا أفراداً وجماعات .
- أسرعهم إفاقة بعد مصيبة ، فالمصائب الكبرى حين تهجم عليهم قد تُفقدتهم توازنهم ، ولكنهم يثوبون إلى التماسك والتجلد من قريب ، محاولين تجاوز كوارث الماضي ، ناظرين إلى مستقبل يشع بالأمل .
- أوشكهم كربة بعد فرة ، فهم لا يستسلمون للهزيمة إذا حلت بهم ، ولا يتعاطون مع إفرازاتها ، بل يعمدون إلى جمع قواهم ، ومعالجة أسباب الفرار ، ومعاودة التصدي للخطر الداهم والعدو الجاثم ، وهذه الخاصية عامل من أقوى عوامل قوة الأمم ونهضتها .
- خيرهم لمسكين وبتيم وضعيف .. فهم يواسون فقراءهم ، ويعطفون على أيتامهم ، ويتداعون إلى مساعدة ضعفائهم .. إنهم لا يرون مواطن الخلل الاجتماعي ويغضون الطرف عنها ، ففي قلوبهم رحمة ، وفي أيديهم عطاء بسخاء ، ونعلم كثير من الأغنياء الغربيين يدفعون بسخاء للأعمال الخيرية ، بل منهم من يخصص ربع ثروته للأعمال الخيرية .
- أ منعهم من ظلم الملوك ، وقد قال عمرو رضي الله عنه عن هذه الخصلة بأنها حسنة جميلة ، فالشعوب التي تنفر من ظلم الحكام ، وتضطربهم إلى التخلي عن الظلم ، لا ريب في أنها تشعر بوجودها ، وهذا يدفعها إلى عمل إيجابي يؤهلها للنهوض بواجبات البناء ومواجهة التحديات ، وقد يكون تحديد سنوات حكم محددة لكل حاكم كما في الديموقراطيات الغربية من أ منع أسباب ظلم واستبداد الحكام .

المصادر والمراجع :

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : الكتب :

- (١) إبراهيم بن يحيى بن خليفة ، السياسة الشرعية ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، بدون تاريخ .

- (٢) ابن قيم الجوزية ، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، تحقيق محمد جميل غازي ، ، القاهرة : مطبعة المدني ، بدون تاريخ.
- (٣) ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، بيروت : دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر ، ط ٢.
- (٤) ابن منظور الإفريقي ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، ط ٣ ، ج ٦ ، بدون تاريخ.
- (٥) أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين ، القاهرة : مطبعة الاستقامة ، بدون تاريخ.
- (٦) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، صحيح البخاري .
- (٧) أحمد بن حنبل : المسند ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، دار صادر ، ج ٣.
- (٨) أحمد عرفات القاضي ، التربية والسياسة عند أبي حامد الغزالي ، القاهرة : دار قباء للنشر ، ٢٠٠٢ م.
- (٩) أحمد عطية ، القاموس السياسي ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ ، الطبعة ٣.
- (١٠) أميل دوركايم ، التربية الأخلاقية ، ترجمة السيد محمد بدوي ، القاهرة ، بدون تاريخ ولا دار نشر ، الطبعة ١.
- (١١) حسين فوزي النجار : الإسلام والسياسة ، القاهرة : دار المعارف ، يناير ١٩٨٤ م.
- (١٢) الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، ط ١ ، تحقيق وضبط محمد خليل عيتاني ، دار المعرفة ، بيروت لبنان ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.
- (١٣) ريمون بولان ، الأخلاق والسياسة ، ترجمة عادل العوا ، دمشق : دار طلاس للدراسات والترجمة ، ١٩٨٨ .
- (١٤) زكي مبارك : الأخلاق عند الغزالي ، الطبعة الثانية ، دار الشعب ، ١٩٧٠ .
- (١٥) سعيد عبد الله حارب ، السياسة والدين بين المبادئ والتاريخ ، بحث قدم في ندوة الفقه السياسي للأقليات المسلمة بأوروبا ، أسطنبول ٤-٦ يوليو ٢٠٠٦ م.
- (١٦) عبد الكريم زيدان ، أصول الدعوة ، قطر : دار العرفان ، ١٤٠٨ هـ.
- (١٧) عبد الله بن سيف الأزدي ، فصول من الأخلاق الإسلامية ، ط ١ ، دار الأندلس ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م.
- (١٨) عمر الأشقر ، نحو ثقافة إسلامية أصيلة ، دار النفائس ، عمان ، ١٤٢١ هـ ، ٢٠٠٠ م.
- (١٩) العمري ، السياسة والحكم في ضوء الدساتير المقارنة ، القاهرة : مطبعة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٢ م.

(٢٠) الغزالي ، التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، بيروت : دار المركز الإسلامي للبحوث ، ١٩٨٧ .

(٢١) الغزالي ، سر العالمين ، القاهرة : مطبعة الاستقامة ، بدون تاريخ .

(٢٢) الغزالي ، فاتحة العلوم ، القاهرة : مطبعة الاستقامة ، بدون تاريخ .

(٢٣) الغزالي ، ميزان العمل ، القاهرة : مطبعة الاستقامة ، بدون تاريخ .

(٢٤) فتحي الدريني ، خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، بدون تاريخ .

(٢٥) مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، بيروت : دار الجيل ، بدون تاريخ .

(٢٦) الإمام مالك بن أنس ، الموطأ ، مجلد ٢ .

(٢٧) محمد عبد المعز نصر ، فلسفة السياسة عند الغزالي ، دار النهضة العربية .

(٢٨) محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة الأحاديث الصحيحة .

(٢٩) مصطفى شاهين ، فلسفة الفارابي السياسية ، رسالة ماجستير بكلية الآداب ، جامعة القاهرة .

(٣٠) مقداد يالجن ، علم الأخلاق الإسلامية ، ط ١ ، الرياض ١٤١٣ هـ ، ١٩٩٢ م .

(٣١) ناجي التكريتي ، الفلسفة الأخلاقية الأفلاطونية عند مفكري الإسلام ، بيروت : دار الأندلس ، ١٩٨٢ .

مراجع اجنبية :

.Plato, The Republic

مواقع الإنترنت :

(١) سعد بن مطر العتيبي ، مدلول السياسة الشرعية ، بحث موجود على الرابط : <http://saaid.net/Doat/otibi> .

(٢) موقع جامعة الملك سعود ، على الرابط : faculty.ksu.edu.sa

(٣) موقع شبكة اسلام اون لاين ، على الرابط :

[Http://www.islmonline.net/iol-Arabic/dowalia mafaheem-14asn](http://www.islmonline.net/iol-Arabic/dowalia mafaheem-14asn)